

## تراث العرب السياسي

فيصل الحفيان \*

يتضمن كتاب "تراث العرب السياسي" مجموع أعمال الندوة التي أقامها معهد المخطوطات بالجامعة العربية، بهذا العنوان يومي 29 و30 ديسمبر 2001. وقد وقعت الندوة في سبع جلسات، انصبت الجلسة الأولى على إيضاح الغرض من الندوة (د. أحمد يوسف أحمد مدير معهد المخطوطات)، وعلى بيان فكرة الندوة (د. فيصل الحفيان نائب مدير معهد المخطوطات). أما الجلسة السابعة والأخيرة فكان فيها التقرير الختامي والتوصيات (د. فيصل الحفيان).

في الجلسة الثانية بعنوان: "السياسة في التراث، اتجاهاتها ومفهومها"، حاضر كل من الدكتور رضوان السيد، أستاذ الدراسات الإسلامية بالجامعة اللبنانية، وجاء بحثه بعنوان الحضور التراثي في الفكر السياسي الإسلامي الحديث والمعاصر. وحاضر د. فيصل الحفيان، وكان بحثه بعنوان: "مفهوم السياسة عند العرب: مقاربات أولى".

حدد د. رضوان السيد معنى التراث السياسي في مطلع محاضراته بأنه المؤلفات والرسائل المكتوبة على سبيل الاستقلال أو التضمين والمتصلة بالتفكير في الدولة والنظام السياسي، وما يتعلق بهما من مؤسسات وآليات. وذكر أن استعمال التراث السياسي الإسلامي في الأزمنة الحديثة تركزت المسلمين بمرحلتين: مرحلة الاقتباس والاستلهام، ومرحلة الاستعمال بطريقة أيديولوجية أو باعتباره نظاما كاملا متكاملًا. وقد ذكر الباحث من أمثلة الاقتباس الأقدم لجوء الطهطاوي (1801 - 1873م) إلى اقتباس أكثر كتاب الطرسوسي الحنفي (758هـ) بعنوان: تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك. كما ذكر من أمثلة الاستلهام، رجوع خير الدين التونسي (1889م) إلى ابن خلدون (808هـ) في الغير بوضع مقدمة لكتابه "أقوم المالك في معرفة أحوال الممالك" تشبهه في فلسفتها وتركيبها مقدمة ابن خلدون - كما أخذ أو استلهم من المالكية وابن قيم الجوزية (751هـ) فكرة المصالح. وهناك أنواع أخرى من الاستلهام والتحويل والتأويل لكتب التراث السياسي ذكرها الكاتب، ومنها ما فعله الشيخ حسين المرصفي (1890م) مع كتب أدب السمر والمعاجم القديمة وكتب الأدب، وما قام به رفيق العظم (1925م) من عودة لكتب التاريخ الإسلامي، ولمقدمة ابن خلدون، مع تسمية مصطلح العمران عند ابن خلدون: مدنية، وتسمية مصطلح العصبية: التكافل. والتفرقة بين الاجتماع البشري الأوروبي، والاجتماع البشري الإسلامي، على أساس من هذين المصطلحين.

ويصل الكاتب رضوان السيد إلى المرحلة الثانية من مرحلتي العودة للتراث السياسي لدى المسلمين المحدثين والمعاصرين، فيتحدث أولاً عن ظهور الفكر الإسلامي المعاصر

باعتباره فكرياً إحيائياً، يملك منظومة أيديولوجية متكاملة. ولذلك يتم بطابع عقائدي، ويميل للرجوع للقرآن والسنة على سبيل التأصيل ولهذا فإنه رغم كثرة الرجوع للماوردي وابن تيمية في هذه المرحلة؛ فقد كان ذلك رمزياً ولتثبيت المرجعية، وليس من أجل الاقتباس المجرد أو الإفادة في استحداث تأويلات أو أطروحات جديدة. ويتحدث الكاتب في مرحلة ثالثة أو معاصرة غير أيديولوجية، لجأ فيها المؤلفون المسلمون إلى كتب التراث السياسي بطرائق أكاديمية باعتبارها من كتب الفقه الدستوري. ويختم الكاتب بحثه بالتطرق إلى الاهتمام بكتب الفلاسفة المسلمين في السياسة (الفارابي على الخصوص).

وقد كانت هناك تعليقات شتى على بحث د. السيد، وما وافقه كثيرون على الحاضرين على تقسيماته، لكنهم أجمعوا على حدة البحث، وضرورة متابعته.

ودرس د. فيصل الحفيان في بحثه عن "مفهوم السياسة عند العرب" المعنى اللغوي للكلمة، وأثبت أنها عربية في وجه من قال إنها مغولية أو فارسية. ورجح أن تكون قد تحولت إلى مصطلح معروف في القرن الثالث الهجري لكثرة ظهورها في عناوين كتب ذكرها ابن النديم في الفهرست. ومعناها الرئيسيان آنذاك هما: القيام على الشيء بما يصلحه، والأصل والطبع والخلق والسجية. وقد قام الكاتب في القسم الثاني من بحثه باستعراض مفهوم وموقع "علم السياسة" في موسوعات العلوم وكتبها منذ الفارابي وإلى طاش كبري زاده. وخلاصة ما توصل إليه أن السياسة اعتبرت أقسام الحكمة العملية وهي: الأخلاق وعلم تدبير المنزل وعلم السياسة.

وقد لاحظ المعلقون على بحث د. الحفيان أنه لم يتعرض لمفهوم السياسة الشرعية بطريقة كافية، لكنهم أثنوا على استقصائه ووضوحه.

وحاضر في الجلسة الثالثة للدوة الأستاذ عصام الشنطي (تراث العرب السياسي في المشرق: قمم وتحولات)، والأستاذ المعروف في الأندلسيات الدكتور محمود علي مكي (التراث السياسي في المغرب والأندلس: قمم وتحولات).

درس الأستاذ الشطي القمم والتحولات في التراث السياسي بالمشرق الإسلامي، فذكر ابن المقفع، وكتبه: الأدب الكبير، والدرة اليتيمة، ورسالة الصحابة، وكنيلة ودمنة. واعتبر رسالة الصحابة، وكنيلة ودمنة، أهم كتب ابن المقفع في السياسة، ورجح أن يكون سبب قتله. ثم ذكر ابن قتيبة وكتابه عيون الأخبار، باعتباره يتضمن باباً طويلاً في السلطان. وجاء الماوردي ثالثاً فذكر أربعة من كتبه في السياسة وهي: قوانين الوزارة، ولتسهيل النظر، ونصيحة الملوك، والأحكام السلطانية. وقدم الكاتب هنا وصفا مفيداً لمحتويات الكتب مع التركيز على قوانين الوزارة والأحكام السلطانية. وتلا ذلك ذكر للغزالي في الثبر المسبوك، وإحياء علوم الدين، وفضائح الباطنية، وسر العالم وكشف ما في الدارين. ورأى أن كتابات الغزالي يغلب عليها في المجال السياسي الطابع الوعظي. ثم ذكر الطرطوشي صاحب "سراج الملوك"، وقال إنه متأثر فيما يبدو بسياسة تامة لنظام الملك وزير السلاجقة المقتول عام 840هـ؛ وكتاب الغزالي: الثبر المسبوك. وبعد أن تطرق

لأبن الطقطقي (الفخري)، وابن تيمية (السياسة الشرعية)، حطت به الرحال عند ابن خلدون، فأطال في عرض المضامين السياسية لمقدمته.

أما قلم التراث السياسي في المغرب والأندلس، فقد عرض لها الدكتور محمود علي مكي في بحثه، فأرخ أولاً- وبإيجاز لظهور الممالك وتطورها في المغرب والأندلس، ثم ذكر أن المغاربة والأندلسيين تأثروا في رسائلهم السياسية الأولى بابن المقفع وابن قتيبة (من مثل ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد). وكانت للأندلسيين ابن حزم وابن حيان إسهامات بارزة في الفكر السياسي. بيد أن أقدم مغربي كتب في السياسة هو محمد بن الحسن المرادي صاحب "الإشارة إلى أدب الإمارة"، والذي يقال إنه كتبه لمؤسس دولة المرابطين. ويقول د. مكي إنه بخلاف ابن حزم وابن حيان- لم يهتم بنظرية الخلافة؛ بل قسم كتابه إلى ثلاثين باباً من أبواب السياسة العملية. وفي أواخر القرن الخامس وأوائل السادس (الهجري) ظهر الطرطوشي (صاحب سراج الملوك)، وأبو بكر ابن العربي الإشبيلي. وقد سبق للأستاذ الشنطي أن اعتبر الطرطوشي مشرقياً لهجرته إلى الإسكندرية، ونشره كتابه فيها. ويعتبر د. مكي ابن العربي كاتباً في السياسة لما ورد عن الخلافة ونظام الحكم في كتبه: العواصم وأحكام القرآن، وشرح سنن الترمذي، ثم اهتم د. مكي بعرض فكر ابن رشد السياسي في تلخيصه لكتاب سبب الخطابة لأرسطو، وفي بداية المجتهد، ولكن على الخصوص شرح ابن رشد لجمهورية أفلاطون، والذي ترد فيه آراء خاصة له.

ويلاحظ د. مكي تراجعاً في الفكر والحياة السياسية في الأندلس والمغرب طوال قرن لكن الازدهار يعد مع لسان الدين ابن الخطيب وكتبه ورسائله الكثيرة في السياسة والفكر السياسي، ومن معاصرين ابن الخطيب أبو القاسم ابن رضوان صاحب: الشهب اللامعة في السياسة النافعة، والسلطان أبو حمو الزياني صاحب: واسطة السلوك في سياسة الملوك. ويأتي بعد هؤلاء- وإن يكن قريباً على عصرهم كل من ابن هذيل صاحب: لمن الأدب والسياسة، وزين الخشب والرياسة، وبان سماك صاحب: الزهرات المنشورة في نكت الأخبار المأثورة، وابن خلدون صاحب العبر والمقدمة المشهورة. ومع أن القرن التاسع الهجري كان قرن اضطراب وزوال بالأندلس، فقد ظهر فيه ابن عاصم صاحب: تحفة الحكام، وجنة الرضا بما قدر الله وقضى، ثم ابن الأزرق صاحب: "بدائع السلك في طبائع الملك" الذي لخص فيه مقدمة ابن خلدون، وأضاف إليها ما رآه وعرفه.

وكانت الجلسة الرابعة بعنوان: التراث السياسي، الأصول والمصادر. وقد حاضر فيها الدكتور يوسف زيدان (التراث السياسي: الأصول والمصادر)، و د. سعيد مغاوري (التراث السياسي في الوثائق). وقد عاد الدكتور زيدان فدرس معنى السياسة في اللغة والمفهوم، ورد على د. محمد عمارة الذي استنتج من نص للمقريزي أن مفرد "سياسة" مغولي! أما الأصول فيعتبر د. زيدان الفارابي أولها، وله في نظره ستة كتب في السياسة، يمضي الكاتب إلى عرضها، وشرح رؤية الفارابي لعلم السياسة، ولتركيب المجتمعات والمدن وأنظمة الحكم. أما المؤلف الثاني عند د. زيدان فهو ابن سينا، وهو يذكر له رسالة

في السياسة، ثم يعرضها بإسهاب، مبينا تميزه على الفارابي في بعض النواحي. وبعد هذين يوجز الكاتب في ذكر المؤلفات السياسية، لينصرف بعدها وتحت عنوان الأصول والمصادر، إلى ذكر مصادر النص السياسي. وهي عنده أو لا: النص الديني، والتراث الأجنبي. وهو يذكر أمثلة كثيرة لهذا وذاك.

ويبدأ د. مغاوري بحثه بتصريف (الوثيقة)، ثم يعتبر (العهد العمرية) أولى الوثائق السياسية، ثم ما يلبث أن ينصرف إلى الوثائق التي وجدت على البرديات بمصر من مثل رسالة قرّة بن شريك، حول عطاء الجند، ورسالة الوالي العباسي موسى بن كعب. وهناك أنواع أخرى عن الوثائق، يذكر الكاتب نماذج منها وأمثلة عليها، مما يتضمن نوا سياسيا أو غرضا سياسيا، ومن ذلك وثائق دير سانت كاترين، حول معاملات الدير بسيناء مع سلاطين المماليك.

وفي الجلستين الخامسة والسادسة حاضر كل من د. كمال عرفات نبهان من "الببليوغرافيا في تراثنا السياسي"، ود. رضوان السيد عن مدارس الفكر السياسي الإسلامي واتجاهاته. وقد ذكر د. نبهان نماذج وأمثلة لأهمية التحقيق والببليوغرافيا، إذ إنها تبين أثر السابق في اللاحق وتطورات الفكر وخطواته.

أما د. رضوان السيد فقد قسم الفكر السياسي الإسلامي القديم إلى أربع مدارس أو اتجاهات رئيسية: مدرسة الفلاسفة المسلمين، وإشكالياتها الأساسية السياسة العقلية أو الحكمة العملية التي تصلح بها أمور الدولة، ويبلغ بها الناس السعادة، ومدرسة الفقهاء الأحكام السلطانية والسياسة الشرعية، وإشكالياتها إقامة نظام للحكم يتم مشروعية من الشريعة الإسلامية، ونموذجه: الخلافة الإسلامية- ومدرسة نصائح الملوك أو مرايا الأمراء، وقد كتب المسلمون في نطاقها كثيرا. وإشكالياتها سلطة الأمير أو الملك من طريق مراعاة المصالح والتوازن- ومدرسة المتكلمين، وإشكالياتها إقامة سلطة عقائدية؛ وهي تلحق السياسة بالعقيدة لدى الشيعة، ولدى السنة إلى حد ما. وقد ذكر المحاضر أمثلة ومصادر ورسائل لكل مدرسة أو اتجاه. وخلص إلى أن هذا البحث أولى، ولا بد من متابعته ونقده.

جاء في التوصيات إنه لا بد من الاهتمام بمخطوطات الفكر الإسلامي، كما لا بد من القيام بمحاولات جديدة لكتابة تاريخ للفكر السياسي الإسلامي. وقد كانت ندوة جادة حضرها كبار الأساتذة العرب في التاريخ والعلوم السياسية. لكن دوران الأبحاث على المشهورين، يشير إلى ضرورة الاهتمام فعلا بالتراث السياسي اكتشافا وتصنيفا ودراسة.

\*\*\*\*\*

(\* تراث العرب السياسي. تنسيق وتحرير د. فيصل الحفيان. ندوة قضايا المخطوطات (5) و30 ديسمبر 2001م. معهد المخطوطات العربية. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. القاهرة 2002، ص288). والدكتور فيصل الحفيان، باحث من سورية.

